

الفصل التاسع

وصفة الفيدي

من والفريقين من عُرب ومن عجم
أبر في قول لا مه ولا نعم
لكل هول من الأهوال مفتحم
متمكون عمل غير منقسم
ولم يدانوه في علم ولا ك - رم
غرفا من البحر أو رشفة من الدم
من نقطة العلم أو من شكلة الحكم
ثم اصطفاه حيا ساري، التسم
فجوهر الحسن فيه غير منقسم

◦ الإمام البوصيري

منها وما يتعشق الكبراء
دينا تضيء بسوره الأناء
يقري همن ويولع الكرماء
وملاحمة الصديق منك إباء
ما أوتي القواد والزعماء

◦ أحمد شوقي

عمد سيد الكونين والتقلي
نيننا الأمر الناهي فلا أحد
هو الحبيب الذي ترجى شفاعته
دعا إلى الله فالمستمكن به
فاق السير في خلق وفي خلق
وكلهم من رسول الله ملتمس
وواقفون لديه عند حدهم
فهو الذي تم معاه وصورته
مزه عن شريك في محاسنه

يا من له الأخلاق ما تهوى العلا
لو لم تقم دينا لقامت وحدها
زانتك في الخلق العظيم شمائل
أما الجمال فأنت شمس سمانه
والحسن من كرم الوجوه وخيره

obeikandi.com

هل إذا عرفنا أوصاف النبي بالتفصيل . هل هذا سيزيدنا معرفة به وقربا

حبه ؟

وهل تفيدنا أوصاف النبي مثل طريقة مشيته أو ملامح وجهه وطوله وعرضه

ونور بشرته ولون عينيه ... إلخ ؟

نعم .

لأن للشخصية الإنسانية مكونين ، مكون داخلي . ومكون خارجي . ولن تكتمل معرفتك للشخصية إلا بمعرفة هذين المكونين ، فإذا قيل لك عن شخص ما أنه صادق وأمين ووفى وشجاع وجريء .. فستظل تلك الأوصاف أوصاف مجردة ومعاني هائمة إلى أن ترى ذلك الشخص أمامك يتحرك ويتنفس ويسير على قدمين حينئذ تتحول تلك الأوصاف وتلك المعاني إلى شيء حقيقي أمامك تدركه حواسك . وتتحول تلك الأوصاف والمعاني إلى مظاهر للحياة تؤثر كأشد ما يكون التأثير وتفعل فيمن حولها كأقوى ما يكون الفعل .

أيضا لابد وأن يكون الداخل والخارج على وفاق ، بمعنى أن الصادق والأمين والوفى في الغالب تكون هناك دلائل وإمارات لا تخطئها عين الفاحص على مظهر الشخصية ، بل في أحوال كثيرة نحكم على داخل الشخصية بما نراه من صفاتها وملامحها الخارجية .

والذي يغفل عن إدراك تلك العلاقة الوثيقة بين المظهر الخارجي للشخصية وحقيقتها هو جاهل كما عبرت الآية الكريمة:

﴿ لَيْسَ الْبِرُّ بِالْإِسْرَافِ فِي السَّيْرِ وَالَّذِينَ يَحْكُمُونَ الْغَيْرَ بِالْأَنْزَامِ يَنْسَخُ عَنْهُمْ أَلْحَاظُ الْعِزَّةِ مِنْ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيئَتِهِمْ لَا بِتَقْوَاهُمْ الْتَأَسُّؤُا وَالْحَكَاظُ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ قَالَتْ اللَّهُ يَوْمَ عَلِيمٌ ﴿٢٧٣﴾ ﴾ البقرة: ٢٧٣

والسمة هي العلامة والأمانة ، وهي التي تقودك - من خلال الفحص والدراسة - إلى حقيقة الشخصية ، وإن لم يكن الإنسان على دراية بحقيقة الملامح وقسمات الوجه وما تدل عليه فقد يخدع ، فالناظر إلى هؤلاء بحسبهم أغنياء ، وهم في حقيقة الأمر ليسوا بأغنياء ، ولكن التعفف هو الذي أظهرهم بهذا المنظر ، وحينما نتفقد أحوالهم وظروفهم وأوضاعهم نجد أنهم فقراء ، ولكنهم سلكوا مسلك الغني بالفقر لم يقنض ويقيد ملامح الوجوه ، كما أنه لم يستعبد نفوسهم ، فلديهم من العزة والكرامة والكبرياء أن لا يطلبوا العون أو المساعدة من الآخرين . وليس من العسير على أي متفحص للملامح الوجه أن يدرك حقيقة ما تدل عليه ، وملامح الإنسان كأشد ما تكون دلالة على حقيقته مهما حاول أن يحملها ما لا تحتمل؛ لأن هناك ارتباط وثيق بين ما يدور ويحدث في داخل النفس وما ينعكس على صفحة الوجه . والوجه - وهو أول ما يواجهك ويقابلك من الشخصية - يشي عما في داخل

النفس سواء كان خيرا كما في الآيات الكريمة

﴿ سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ الْجُودِ ﴾ الفتح: ٢٩

﴿ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿٢٣﴾ عَلَى الْأَرْبَابِكِ يَنْظُرُونَ ﴿٢٤﴾ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ﴾

المطففين: ٢٢ - ٢٤

﴿ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ ﴿٨﴾ لَسَعِيَهَا رَاضِيَةٌ ﴾ الغاشية: ٨ - ٩

﴿ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ ﴿٢٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ ﴾ عبس: ٢٨ - ٢٩

﴿ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاصِرَةٌ ﴿٢١﴾ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ القيامة: ٢٢ - ٢٣

أو شرا كما في الآيات الكريمة :

﴿ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ ﴾ الحج: ٧٢

﴿ وَوُجُوهُ عَلَيْهَا عَذَابٌ ﴿٤٠﴾ تَرَاهُمَا فَتْرَةٌ ﴿٤١﴾ أُولَئِكَ هُمُ الْكٰفِرَةُ الْفَجْرَةُ ﴾ عبس ٤٠ - ٤٢

﴿ يَعْرِفُ الْمَجْرُمُونَ بِسِيْمَتِهِمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَصِي وَالْأَقْدَامِ ﴾ الرحمن: ٤١

وليس ملامح الوجه هي فقط التي تدل على ما في داخل النفس وتكشف

خبيئة تلك النفس بل أيضا طريقة مشي الشخص :

﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴾ الفرقان: ٦٣

﴿ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا ﴾ الإسراء: ٣٦
﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ (١٨)
﴿ وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَأَغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴾ لقمان: ١٨ - ١٩
﴿ بِنَاءً لَهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشَى عَلَى الْأَسْتَحْيَاءِ ﴾ (٢٥) ﴿ القصص: ٢٥

والجسم - بصفة عامة - وما يتصف به من قوة واعتدال من الدلائل التي

تساعد في سبر غور الشخصية فقد قال القرآن في حق طالوت

﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مَلَكَهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ (٢٤٧) ﴿ البقرة: ٢٤٧

إذن المظهر الخارجي للشخصية لا نستطيع أن نغفله إذا كنا نريد دراسة

الشخصية دراسة حقيقية ، أو أن نفهم الشخصية فهما صادقا .

والوصف عند العرب - في أغلجه - يقوم على العلاقات ، تلك العلاقات تمنع

الذهن أو الخيال أن يشتط ويخرج من الصورة الواقعية ، بل المغرقة في الواقعية

وفي الجاهلية حينما جسدوا وجسموا الآلهة سواء كان صنما أو وثنا ، لم يخلعوا

عليها أو يمنحوها صفات غير واقعية بالمره ، وحينما جاء الإسلام امتزج الوصف

الواقعي لديهم بالوصف الخلقى ، أي واقعا صادقا ، والصدق هو مطابقة الواقع

فلم يصفوا الأشخاص بصفات غير إنسانية أو غير بشرية ، وإنما وصفوهم بصفاتهم

الحقيقية مع شيء من المبالغة ، والمبالغة نوع من التجميل ، والتجميل ليس خروجاً عن الواقع أو الحقيقة وإنما هو محاولة إظهارها في أحسن وأفضل صورة .

ومن غريب الأمر أنه حينما ورد إلينا وصف النبي لم يتضمن أي نوع من المبالغة بأي صورة من الصور ، وإنما هو وصف واقعي صادق كل الصدق لم يشوبه إحساس أو شعور بالتقديس أو محاولة الارتفاع به فوق مقام البشرية . وقد يرجع هذا لأمرين :

- فهمهم لحقيقة النبوة ، وأنها لا نخرج شخص النبي عن كونه بشراً .
- أنهم شعروا وهم بإزاء وصفهم للنبي أنه لا بد وأن يتحروا الصدق والحقيقة بدون تحريف أو تبديل .

" لأن الذين وصفوه أحبه وأحبوا أن يقتدوا به فتخرجوا في وصفه كما يتخرج المرء في الاقتداء بصفات النجاة والأخذ بأسباب السلامة ، فكانت أمانة الوصف هنا مزجاً من العطف والتدين وضرباً من اتباع السنن وقضاء الفروض" ١٤٦

○ شكل وبنية النبي :

لابد وأن تكون بنية النبي قوية وبنيانته متماسكاً ومتيناً ، قضى بهذا وفرضته المهام الجسام والأعباء الثقيلة التي كلف بها النبي وفرضت عليه فرضاً وألزم بها إلزاماً ، تلك القوة سند له في حالتين :

- حينما يباشره الملك ، أو يتنزل عليه الوحي ، فكما عرفنا أن النبي تعرض - في بداية الوحي - إلى صدمة زلزته زلزالا عظيماً ، والتغيرات التي تطرأ عليه - أثناء نزول الوحي عليه بعد ذلك - ويبصرها المحيطون به تدل على أنه يتعرض لعاناة ومشقة لا مثيل لها ، فقد كان يتفصد عرقاً في اليوم الشتائي ويصدر منه - ﷺ - غطيط وأصوات تدل على مدى المعاناة، حتى

أنهم كانوا يضعون على وجهه غطاء كي لا يتأذون وهم يرون دلائل وإمارات المعاناة مرتسمة على ملامح وجهه. وهو مطالب بعد ذلك - وهو في أثناء تلك المعاناة والمتنقة - أن يعي ما يلقيه إليه الملك ، أي أن حواسه ومداركه في كامل استعدادها وفي قمة يقظتها ، لذلك لا بد أن يكون ليس قويا فحسب بل يتعدى هذا الوصف بمراحل كي يتحمل تلك المعاناة ، وإلا فإن لم يكن قويا بما فيه الكفاية فقد يتلف هذا الكيان وتتحلل تلك البنية " كانت أوصافه في غير حالة الوحي توافق الاستعداد الذي يربطه لتلقي الوحي والنبوة ، فكان حسا كله وحياة كله ، يراه من ينظر إليه فيرى فؤادا يقظا يتنبه لكل خالجة نفسية وكل نبأة خفية " ١٤٧

فإذا تجاوز النبي مرحلة مباشرة الملك وتلقي عنه الوحي ، تأتي مرحلة أخرى ، وهي تبليغ ما أمر بتبليغه ، وكم من عقبات أقيمت بينه وبين هذا الأمر وكم من أزمات ومآزق ومؤامرات ومعارك ومكائد وضعتها الأعداء والكارهون والكاشحون والحاقدون ، تحديات شرسة ، ولا بد أن يواجهها ويقارعها وينتصر عليها ، هنا أيضا لا بد أن يكون قويا وقادرا وصلبا في مواجهة كل هذا ، أضف إلى ذلك الجانب النفسي والضغط العصبي ، وهو لا بد مؤثر على كيانه وبنائه . فهو دائم التفكير والتوجس والقلق تتعاوره مشاعر الحزن والاحباط واليأس والخوف ، كل هذا لا يمكن إنكار تأثيره على بنيته وكيانه .

○ واصفوا الرسول

أشهر هؤلاء هو الإمام علي بن أبي طالب وأم معبد الخزاعية (عاتكة بنت خالد) وهند بن أبي هالة .

- **أولاً :** الإمام على بن أبي طالب " أما صورته الشخصية ، المنظر والمظهر العام فكان كما وصفه ابن عمه (الإمام على) وسجل كتاب السيرة وبالذات الطبري في تاريخه والسهيلي في الروض الأنف ((..شابا وسيما ، معرب الملامح أزهر اللون، ربعة في الرجال ليس بالطويل النائن ولا بالقصير المتردد... ضخم الرأس ، مبسوط الجبين مرسل الذقن ، عالي العنق ، عريض الصدر غليظ الكفين والقدمين يتوج هامته شعر كث شديد السواد ، وتشع عيناه الدعجوان الواسعتان جاذبية وسحرا ، نحت أهداب حوالك ، وتقالق أسنانه المفلجة البيضاء إذا تكلم أو ابتسم ... وكان يسرع الخطو ملقيا بجسمه إلى الأمام ، ويحسن الأصغاء ملتفتا إلى محدثه بكل جسمه ، لطيف المحضر يضحك أحيانا حتى تبدو نواجذه ، فإذا غضب لم يخنه حلمه بل ينفر عرق بين حاجبيه السابغين المتصلين من أثر الغضب .

- **ثانياً "** وفيما سجل ابن عبد البر عن الرواة الثقة في كتابه ((الاستيعاب في معرفة الأصحاب)) فإن أم معبد الخزاعية ((عاتكة بنت خالد)) بعد أن رأت "محمدا" قالت تصفه " رأيت رجلا طاهر الوضوء ، أبلغ الوجه حسن الخلق ، وسيما قسيما ، في عينيه دمع ، وفي عنقه سطح ، وفي صوته صل ، وفي لحيته كثائة، أرج أقرن ... إن صمت فعليه الوقار ، وإن تكلم سما وعلاه البهاء ... أجمل الناس وأبهاء من بعيد ، وأحسنه وأجمله من قريب ، حلوا المنطق فصل ، لا نزولا هذر...ربعة ، لا بائن من طول ولا نقتحه عين من قصر..له رفقاء يحيطون به ، إن قال أنصتوا لقوله وإن أمر تبادروا لأمره " ١٤٨

١٤٨- من مقال للأستاذ (نصر عبد اللطيف) بعنوان: النبي زوجا وأبا - مجلة الهلال العدد العاشر- أول أكتوبر ١٩٧٢

- ثالثاً " يقول الحسن بن علي عليه السلام : سألت هند بن أبي هالة عن حلية رسول الله صلى الله عليه وآله . وكان وصافا ، وأنا أرجو أن يصف لي منه شيئا أتعلق به فقال : كان فخما فخما : يتلأأ وجهه تلالؤ القمر ليلة البدر ، أطول من المربع وأقصر من المشذب ، عظيم الهامة ، رجل الشعر ، عظيم الهامة ، إن انفردت عقيقته فرق ، وإلا فلا يجاوز شعره شحمة أذنيه إذا هو وفره ، أزهر اللون واسع الجبين ، أرنج الحواجب سوايخ من غير قرن ، بينهما عرق يدره الغضب ألقى العرين . له نور يعلوه ، ويحسسه من لم يتأمله أشم ، كث اللحية ، أدمج سهل الخدين ضليع الفم ، أشنب ، مفلح الأسنان ، دقيق المسربة ، كأن عنقه جيد دمبة في صفاء الفضة ، معتدل الخلق ، بادنا ، متماسكا ، سواء البطن والصدر ، بعيد ما بين المنكبين ، ضخم الكراديس ، أنور المتجرد موصول ، ن اللثة والسرة بشعر يجري كالخط ، عاري الثديين ، أشعر الذراعين والمنكبين وأعلي الصدر ، طويل الزندين ، رحب الراحة ، شثن الكفين والقدمين . سائل الأطراف ، عبل الذراعين خمضان الأخصمين مسبح القدمين ، ينو عنهما الماء إذا زال زال تقلعا ، ويخلو تكفوفاً ويمشي هوبا ، دريع المشية . إذا مشى كأنما ينحط من صب ارتقاد وإذا التفت التفت جميعا . خافض الطرف ، نظره إلى الأرض أطول من نظره إلى السماء ، جل نظره الملاحظة يسوق أصحابه ، ويبدأ من لقيه بالسلام " ١٤٩ .

معاني بعض الكلمات : بلح وجهه : تنضرسورا / أطول من المربع بين الطول والقصر ، والرابعة : الوسيط القامة / القسامة : الحسن والجمال ، قسم الوجه : حسن فهو قسيم ، والقسمة ملامح الوجه ، ووسم : يوسم وسامة حمل وحسن حسنا وضيئا ثابتا فهو وسيم / المشذب : البائن الطول في نحافة / رجل الشعر : ليس بسبط ولا جعد وهو استرسال الشعر كأنه مسرح وهو ضد الجعودة /

عقيقته : شعر رأسه / الحاجب الأزج : المقوس الطويل الوافر الشعر / القرن : اتصال شعر الحاجبين / القنا : أحدياب في الأنف / في صوته صحل : أي بحوحة وفي صفة رسول الله ﷺ حين وصفته (أم معبد) وفي صوته صحل كالبححة والصحل أيضا انشقاق الصوت وألا يكون مستقيما يزيد مرة ويستقيم أخرى / أدعج : شديد سواد الحدقة ودعجت العين دعجا : اشتد سواد سوادهما وبياض بياضهما واتسعت فهي دعجا / ضليع الفم : واسع عظيم أسنانه على التشبيه بالضلع وفي صفته ﷺ : ضليع الفم أي عظيمه وقيل واسع . والعرب تحمد عظم الفم وسعته وتذم صغره وفي صفة منطقه ﷺ : أنه كان يفتتح الكلام ويختمه بأشداقه ، وذلك لرحب شذقيه ، والأشداق : جانب الفم مما تحت الخد . وكانت العرب تمتدح رحابة الشدقين لدالتها على جهازة الصوت . شذوق شذقا : اتسع شذقه . وكان ﷺ يفتتح الكلام ويختمه بأشداقه ، الشداق جوانب الفم ، وإنما يكون ذلك لرحب شذقيه / الشنب : رونق الأسنان وحسنهما / الفلج : فرق بين الثنايا / دقيق المسربة : الشعر المستدق من الصدر إلى السرة / البادن : ذو اللحم / التماسك : الذي يمسك بعضه بعضا / الكراديس : رءوس العظام ، يريد غليظ العظام والكردوس كل عظم عليه لحم / شثن الكفين والقدمين : الشثن : الغليظ وهذا من صفة النبي ﷺ التمام وأنه ليس هناك استرخاء / سائل الأطراف : طويل الأصابع / عبل الذراعين غليظهما / خمسان الأخصمين : متجافي أخمص القدم / التقلع : رفع الرجل بقوة / التكفؤ : الميل إلى سنن المشي وقصده ، ويتكفأ : يتمايل في مشيته ، وهذا مدح في المشي ؛ لأنه لا يكون إلا عند تودة وحسن مشي / الهون : الوقار / الذريع : الوسع الخطو / الصبب : العلو . وقوله في صبب ، الصبب : الحدور ، والماشي يترفق / آثرنا أن نورد ثلاثة أوصاف للنبي من ثلاث مصادر مختلفة . ومن غريب الأمر أن الثلاثة مصادر تكاد تكون متطابقة ، وإن كان هناك اختلاف فيرجع إلى الواصف وليس الموصوف ، أو يرجع لاختلاف مشاعر

وأحاسيس الواصف حينما وصف ، وأظن أن مشاعر المحيطين بالنبي تكاد تكون متشابهة ، فهي مزيج من مشاعر الاجلال والاحترام والتوقير والحب " لم يختلف الوصف مرة إلا كما تختلف نظرة الناظر إلى وجه واحد بين ساعة وأخرى . فيقول غير ما قال أنفا ثم لا يبدو التناقض ولا قصد التحريف بين القولين " ١٥٠

◦ أولا : الوجه :

الوصف هنا يدل على أنك أمام شخص يطيب لك أن - ليس أن تنظر إليه فحسب - تديم النظر إليه ، أن تمضي بعض الوقت تتملى تلك الملامح والقسمات لا لشيء إلا لأنك تشعر بنوع من الراحة والانبساط والانشرح ، مثل إدامتك النظر إلى أي شيء حولك جميل في الطبيعة . مثل زهرة متفتحة ، شجرة طليحة ، القمر وهو في ذروة اكتماله ، البحر ، السماء الزرع الأخضر ، الطير محلقا على ص ، السماء الزرقاء .. إلخ .

مع هذا الوجه وما ينطق به وما يوحي به ، لا تشعر أنك تديم النظر فحسب بل أنت منجذب إليه انجذابا إراديا ؛ لأنه يعمر أو يرضي جوانب ظمأ في النفس الإنسانية ، تلك السمات واللامح مفعمة بالحياة والحيوية المتجددة دوما . وكانت (أم معبد) موفقة حينما قالت (قسيما) فهناك فرق دقيق بين القسامة والوسامة ، فالوسامة هي الحسن والجمال ، والقسامة أيضا بالإضافة أن هذا الحسن والجمال ثابت دائم موجود في كل ظرف وحال بمعنى أنك لا تمل ولا تسأم من النظر إليه لأنه كل لحظة نظر يعطيك شيئا جديدا ، تشعر أنك على درجات سلم ترتقي درجة إثر درجة وكلما ارتقيت ازددت قريبا من نبع أو مصدر الإحساس بالراحة أو الرضا .

ولكن ألا نعد ذلك الوصف نوعا من المبالغة ، أو هو وصف المحب لمن أحبه ؟

وإذا كان ، فهذا لأن الرسول أهل للحب ، هذا من ناحية ومن ناحية أخرى ليس هناك أي مبالغة ، لأن ما في داخل الرسول من مشاعر وأحاسيس من خير وحب لبني الإنسان انطبعت على أسارير وشفقة وجهه . ما في داخل نفس الرسول من صفاء وظهر ونقاء وسماحة وود ورحمة وشفقة وحنان وعطف وبر وحب وتسامح ورأفة وكرم وسخاء وكرامة وعزة وإباء وشموخ كل هذا - ولا شك - لن تجد له نظيراً أو مثيلاً في نفس أي بشر يسير على الأرض غير نفس رسول الله . وكل تلك المشاعر - ولا شك - سيكون له نصيب وأثر على الوجه ، إذن من المنطقي أنك لن تصادف وجهاً كوجه رسول الله ، ولا نقصد جمال الوجه ، ولكن نقصد دلالة وإشارات وسمات كل تلك المعاني على ملامح الوجه ، وأن يكون الوجه بمثابة معبر يعبر بك إلى تلك المعاني الراقية السامية الجميلة ، فنحن لا نحب الوجود في حد ذاتها ، ولكن نحب ما تدل عليه وتجسده من معان ، بدليل أنك تحب أن تنظر إلى وجه ما في حالة ما ، وتكره أن تنظر إلى نفس الوجه في حالة أخرى ، إذن حينما يقول الياصف له : (تشع عيناه الدعجوان الواسعتان جاذبية وسحرا) و (ظاهر اليضاء أبلج الوجه وسيما قسيما في عينيه دعج) و (يتلأأ وحه تلالؤ القمر ليلة البدر) لا نجد في هذا أي مبالغة من أي نوع ، بل هذا وصف في غاية الواقعية وفي منتهى الصدق ، وهل يستطيع أحد أن يجرد هذا الوجه الكريم من كل تلك المعاني ؟ وهل يستطيع أحد أن ينفي أن كل تلك الملامح والسمات التي كان يتمتع بها رسول الله ؟ إن مجرد ذكر اسم رسول الله كفيل أن ينشر في نواحي النفس ودروبها مشاعر الأمن والسكينة والراحة والاطمئنان والرضا والوداعة والصفاء والظهر والنقاء ، نعم ، أن مجرد ذكر اسمه يرقق النفس ويلين مشاعرها ، بل يجعلها ذنوب رقة وحنانا .

فما بالك لو وقع نظرك على وجهه الكريم ؟

◦ ثانيها : اللون

كثير من الوجوه تمر بك أو تمر بها ، تصادفك أو تصادفها ، فلا تثير فيك أي إحساس أو شعور من أي نوع ، فهي لا تجذبك لأنها ليس لها أي صدى أو وقع في نفسك ، بل قد تنفرك وتبتعدك عنها أو تبتعد عنها ، وهناك من الوجوه من تجذبك نحوها ، وتتأملها طويلا باحثا عن سر الجاذبية ، وقد نحار في ذلك ، لأنك لم تعثر عن هذا الذي جذبك ، وتجد مشقة في بحثك هذا ، وبعد ذلك قد تجد ما تبحث عنه ، وقد لا تجد ، وإذا وجدته فقد لا يرضيك لتفسير سبب جاذبيتك له أو إستهوائك له وربما تكون أنت الذي أضيفت من عندك على هذا الوجه مسحة من الجمال ، فهذا الجمال أو التناغم صاعد من نفسك أنت ، لأنك في شوق أن ترى وجهها جميلا فشوقك وظلموك للجمال ، أضي على هذا الوجه ما أضي ، وهناك من الوجوه من يستدرجك في هدوء وتؤدة من خلال تلك الهالة المحيطة به . مثل ضوء القمر الذي يجذبك بكل رفق ودعة لترفع وجهك إلى السماء باحثا عن منبع ومصدر هذا الضوء ثم تمضي بعد ذلك وقتا ليس بالقليل متأملا هذا الجرم السماوي في عليائه وما يبعثه في نفسك من مشاعر الأنس والألفة ، كذلك لون وجه رسول الله ، فهو بمثابة الهالة التي يجذبك ضؤها لتقبولك إلى ملامح الوجه . فلون الوجه ليس بالأسمر وليس بالأبيض ، وإنما زهري اللون ، ويقال رجل أزهر : أي أبيض مشرق الوجه والأزهر الأبيض المستنير ، وزهر : تالأ وأشرق . وزهر : حسن وأبيض وصفالونه والأزهر : كل أبيض صاف مشرق مضيء ، والأزهر : اللبن ساعة يحلب وهو الوضع الناهض الصريح " قال شمر : الأزهر من الرجال الأبيض العتيق البياض النير الحسن وهو أحسن البياض كأن له بريقا ونورا يزهر كما يزهر النجم والسراج " ^{١٥١} وكأن اللون غلالة رقيقة شفافة تظهر ملامح هذا الوجه كأجمل وأفضل وأحسن ما يكون الظهور ، وكأنه دعوة صريحة لا تقاوم لقامل ملامح الوجه .

١٥١- لسان العرب صفحة (١٨٧٧) .

○ ثالثا : الطول والقامة:

لا يمكن أن ندرج الرسول بين طوال القامة ، ولا يمكن أن نعهده من ضمن قصار القامة ، وإنما كان وسطا ، فالغالبية العظمى من ولد آدم لا هم من الطوال ولا هم - كذلك - من القصار ، وكأن الرسول لن يكلف الناس أن يرفعوا رؤوسهم أو يمدوا أعناقهم ليسمعوا عنه أو يتحدثوا إليه ، أو يحنوا رؤوسهم ليلتلقوا عنه ، فهو لم يتميز عن الغالبية من الناس . وكان معتدل الخلق بادننا ليس بال نحيف ، وكان متماسكا ليس بالمتهالك أو الرخو أو الضعيف ، مستوي البطن والصدر ، عريضا

○ رابعا : الهامة والشعر:

كان الرسول ضخم الرأس عظيم الهامة ، ميسوط الجبين مرسل الذقن عالي العنق ، وهذا يتناسب ويتناغم مع طول الرسول ومع بقية الأعضاء من ناحية . ومن ناحية أخرى يدل على كثرة تلافيف المخ وكبر حجمه ، أما شعره فقد كان أسود شديد السواد ، كثيف مسترسل سواء كان ما يخص الرأس أو اللحية أو الحواجب أو رموش عينيه أو الذراعين أو أعلى الصدر .

○ خامسا : الذراعين والقدمين:

كان الرسول طويل الزندين ، عبل الذراعين أي ضخمتها ، شثن الكفين ، أي في أنامله غلط بلا قصر ، ويحمد ذلك في الرجال ؛ لأنه أشد لقبضتهم وأصبر لهم على المراس . وكانت راحته رحبه وأصابع يديه طويلة ، وهذا يدل على القوة والبأس وأن حياة الرسول لم تكن حياة مرفهة أو ناعمة ، أو هو - ﷺ - اختار مثل تلك النوعية من الحياة الخشنة مثل بداية نشأته ، وطبعت ذلك على يديه ، وكان الرسول يرى أن الحياة كفاح وجهاد مستمر لا ينقطع ، وقوله (اخشوشنوا فإن النعمة لا تدوم) يفسر موقفه من الحياة . والقدمين - أيضا - لم يكن بهما إعوجاج أو إنحراف بحيث لو سكبت ماء عليهما لم يبقى عليهما أي أثر ، فهو مسيح القدمين ، كذلك القدمين ليس بهما أي عيب من أسفلهما ، ما نقول عليه في العصر الحديث (فلات

فوت) فقد كان أخصم الأخصمين ، والأخصم :باطن القدم ، وما رق من أسفلها وتجافى عن الأرض ، وإذا كان خصم الأخصم بقدر لم يرتفع جدا ولم يستو أسفل القدم جدا فهو أحسن ما يكون ، فإذا استوى أو ارتفع جدا فهو عيب ، والمقصود أن اخصمه معتدل الخصم ، وهذا الأمر يؤثر تأثيرا شديدا في اعتدال واستواء الجسم وسهولة واستقامة حركته .

○ سادسا :مشييته :

لكل شخصية طريقة في السير والمشي ، فالقوى له طريقته ، كذلك الضعيف له طريقته ، وللمتكبر طريقته ، وللمتواضع طريقته ، وقد نهى القرآن ونذم طريقة معينة في المشي ، كذلك مدح ورغب في طريقة أخرى في المشي ، فطريقة المشي لها دلالة نفسية وسمة من سمات الشخصية ، وكان للرسول الله - ﷺ أسلوب مميز ومعروف به في طريقة مشيته . فهو كان يسرع الخطو ملقيا بجسمه إلى الأمام كأنما ينزل من مكان عال ، وكان يغلب على طريقته في المشي الوقار والتؤدة والهون ولكن في قوة ونشاط وحيوية ، وكأنه أمامه هدف وغرض ومقصد واضح المعالم. يريد أن يصل إليه في أسرع وقت ومن أقرب طريق ، وكأنه لا يريد أن يبدد أي لحظة من عمره بدون أن يزداد إقترابا من هذا الهدف والمقصد ، توجد قوة قدسية داخله تدفعه وتحثه أن يصل إلى هدفه ويكمل رسالته ، أو أن الرسول دائما وأبدا مشغول البال والفكر، وعقله وفكره لا يهدأ ولا يقف أو يكف لحظة عن العمل ، وحركاته تسير حركة فكره وعقله ، وكانت تلك المشية مميزة عرف بها رسول الله دوناً عن بقية الصحابة .

○ سايحا الصدر :

تتوقف أمور كثيرة ومصيرية في حياة الإنسان العادي على سلامة صدره وأمر الهدى والضلال متعلقة بهذا الأمر ، يقول الله - عز وجل - في كتابه الكريم

﴿ فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ صَخِيفًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾ ﴾ الأنعام: ١٢٥ .

﴿ أَمْ مَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلنَّفْسِيفَةِ قُلُوبُهُمْ مِمَّنْ ذَكَرَ اللَّهُ أَوْلِيَّكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٢٢﴾ ﴾ الزمر: ٢٢ .

وإذا كان هذا شأن الصدر مع الإنسان العادي ، فإن الشأن مع الرسول أكثر أهمية ، لأن أمور الدعوة ، وما يتعرض الرسول له من أزمات ومآزق ومحن وشدائد في حاجة إلى صدر يتسع لكل هذا وأكثر. وقد وصف الرسول بأنه عريض الصدر بعيد ما بين المنكبين ، وهذا الوصف يتناسب ويتوافق ويتناغم مع بقية أوصاف أعضاء رسول الله ﷺ ، هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى ، يدل على عظيم وجليل دور ومهمة هذا الجزء من بنية وكيان رسول الله ، لذلك تكرر ذكره أكثر من مرة في القرآن الكريم ، ﴿ كَتَبْنَا أَنْزِلْنَا عَلَيْكَ فِي صَدْرِكَ حَرَجًا مِنْهُ لِنُنذِرَ بِهِ وَذِكْرًا لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ الأعراف: ٢ .

﴿ فَلَمَّا لَكَ تَارِكٌ بَعْضُ مَا يُوْحَىٰ إِلَيْكَ وَضَاقُ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ كُتُبٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾ ﴾ هود: ١٢ .

﴿ وَلَقَدْ نَعَلْنَا أَنْكَ يَصِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ الحجر: ٩٧ .

ولكي لا تنال الأزمات والمحن من صدر رسول الله ، تدخلت العناية الإلهية بشرح صدر رسول الله ، ومن معاني الشرح : البسط والسعة والحفظ والفتح والبيان والفهم والكشف ، وقد خاطب الله عز وجل معلنا لرسوله تلك المنة العظيمة التي التي إمتن بها عليه ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾ ﴾ الشرح: ١ .

" والمراد بشرح الصدر هنا : توسعته وفتحه ، لقبول كل ما هو من الفضائل والكمالات النفسية ، وإذهاب كل ما يصد عن الإدراك السليم وعن الحق والخير والهدى .

وهذا الشرح يشمل الشق البدني لصدره - ﷺ - كما يشمل الشرح المعنوي لصدره - ﷺ - عن طريق إبداعه الإيمان والهدى والعلم والفضائل " ١٥٢

إذن هنا حدث معنوي كان له أثر مادي ، أو تهيئة وإعداد مادي في بنية الرسول لإستقبال عطاء وفيض رباني " لقد صرح الله - عز وجل - في كتابه بأن شرح صدره ﷺ فقال : ﴿الرَّشَّحَ لَكَ صَدْرَكَ﴾ الشرح ١٠ ، وشرح الصدر يعني التوسعة والقدرة على الاستيعاب وصحة الفهم وأريحية النفس واطمئنانها مما يعطي صاحب هذه الصفة القدرة على التلقي والفهم وبيان المراد في طمانينة وثبات وكل هذه المعاني من متطلبات الرسالة ، يقول الشيخ محمد عبده : ((الشرح هو التوسعة والبسط ولقد كان شرح الصدر وسعته عند العرب دليل القوة وعظم المنة وكثيرا ما كان يفتخر مفتخرهم بعظم صدره ولهم الحق لأنه - أي شرح الصدر - يعطى الأحشاء فسحة للنمو مع الراحة الجسدية والنفسية فالقوي قاهر لما ينتابه فهو في مسرة وحضور رأي دائما لا يضيق زرعه بأمر لذلك كنوا بشرح الصدر عن المسرة وانبساط النفس إلى الفعل والقول " ١٥٣

وفي هذا السياق يمكن أن نفهم الروايات التي تكررت عن شق صدر رسول الله أكثر من مرة وهو في الثانية من عمره ، وهو في العاشرة ، وبعد البعثة إبان رحلة الإسراء والمعراج ، ولا يعنيها - هنا - إن كان الشق ماديا أو معنويا ، فالأدب على أهمية عظيم وخطر هذا الجزء من بنية وكيان الرسول ﷺ " ومن خلال كلام الشيخ محمد عبده السابق ندرك أن الله عز وجل بشق صدر رسوله محمد ﷺ وشرحه قد جمع له الكمالين الجسدي والنفسي ، ولهذا نقول إنه لا تنافي إطلاقا بين شق الصدر المعنوي بمعنى تطهير القلب وتنويره وجعله منبسطا منشرحا لا حرج

١٥٢- التفسير الوسيط للقرآن الكريم - الجزء الخامس عشر د. محمد سيد طنطاوي - صفحة (٤٣٦)
 ١٥٣- مقال بعنوان (إعداد الله لرسول محمد) د. الشبراوي محمد عبد الهادي الجهوري - مجلة منبر الإسلام - فبراير - مارس - (٢٠١٠) ربيع أول (١٤٣١)

فيه اصرار ولا ضيق وبين شق الصدر الحسي وتطهيره وتقينته وإحداث الراحة النفسية والاطمئنان القلبي والرضا النفسى والهداية العقلية كما هو واضح في قوله

﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَمْشَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾ (١٢٥) ﴿الأنعام: ١٢٥﴾

٥ الثامن: الصوت

قالت (أم معبد) أن في صوته - ﷺ - (صَحَل) ، أي بُحُوحةً ، الصَّحَل هو البُحَّةُ وألا يكون حادا ، " وفي حديث ابن عمر: أنه كان يرفع صوته بالتلبية حتى يَصْحَلَ أي يَبْحُ . وحديث أبي هريرة في نبذ العهد في الحج : فكنت أنادي حتى صَحَلَ صوتي ! قال الراجز :

فلم يزل مليا ولم يزل

حتى علا الصوت بحوح وصَحَل

وكلما أرفى على نشذ أهل

قال ابن بري: وقد صَحَلَ حلقه أيضا ، قال الشاعر :

وقد صَحَلَت من الروح الخلوق

والصَّحَل: حدة الصوت مع بَحَج ، قال اللحياني : الصحل من الصياح قال: والصحل أيضا انشقاق الصوت وألا يكون مستقيما يزيد مرة ويستقيم أخرى قال : والصَّحَلُ أيضا أن يكون في صدره حشرجة^{١٥٥}.

وهذا الصوت يعطي إحساسا بالشجن والحزن ، فهل تلك البحة في صوت رسول الله قد ولد بها أم هي طرأت عليه من كثرة ما مر به من أحزان ومحزن وشدائد ؟ أم من كثرة قراءة القرآن ؟ هل هي راجعة إلى سبب من تلك الأسباب أم أنها راجعة إلى كل تلك الأسباب مجتمعة ؟

١٥٤- المصدر السابق - صفحة (٤٥ - ٤٦)

١٥٥- لسان العرب - ابن منظور - صفحة (٢٤٠٥)

أما كان الأمر، فإن تلك الصفة في الصوت تجعله يجد طريقه بكل يسر وسهولة إلى النفس؛ لأنه يشيع فيها الرقة والشجن والحزن والصفاء، مع هذا الصوت يشعر المستمع بالهدوء والهدودة والطبقة والمواساة والتعزية، هذا الصوت صدى لما في النفس - المتحدث والمستمع على حد سواء - وهذا ما يجعل الصوت أليفاً ومألوفاً، بسرعة وبدون مقدمات يزيل كل الحجب والموانع والمسافات بين المتحدث والمستمع. إن نبرة صوت المتحدث لك - وليس مضمون وفحوى الكلام - كفيلة أن تقنعك بكل حرف وكل كلمة، وكفيلة في نفس الوقت أن تثير في نفسك الكثير من الإرتباب والشكوك، والأمر لا يقف عند حد اقتناع من عدمه، ولكن الصوت كفيل أن يوقظ في النفس الإنسانية - بل يفجر - ينابيع المشاعر والأحاسيس. والذين آمنوا بالرسول من الصحابة لم يؤمنوا كلهم اقتناعاً بما في القرآن من دلائل وبراهين دالة على صدق الرسول، لأنهم كانوا شرائح شديدة الاختلاف من ناحية العلم والثقافة والإدراك والمعرفة، أعلن أن الكثير قد آمنوا بالرسول لوقع حديث الرسول في أنفسهم... نعم إن "الوليد بن المغيرة المخزومي" قد هن وأعجب إعجاباً بالقرآن حتى قال (والله لقد سمعت من محمد أنفاً كلاماً ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجن، إن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق، وإنه يعلو وما يعلى) وقد قال الوليد ما قاله؛ لأنه عليم بدروب الكلام ومسالك الفصاحة، ولذلك أكد أنه ليس بكلام بشر، ولكن غير الوليد بن المغيرة والذي لم يؤتى ما أتاه الوليد من معرفة بالفصاحة والبلاغة آمن بمحمد وعدم علمه وإدراكه للفصاحة والبلاغة لم يضره ولم يمنعه من الإيمان، فالعلم بالفصاحة والبلاغة هنا لم ينفع الوليد، والجهل بها لم يضر من آمن بمحمد، لأن الكثير لم يعرضوا كلام محمد على عقولهم، وإنما عرضوه على قلوبهم، لا بل كلام محمد استولى على نفوسهم واستحوذ عليهم، فهم حينما كانوا يستمعون إلى النبي موصولون كأقرب ما يكون من النبع والمصدر وهو ملك الوحي، فلا يمكن أن تتأثر

بالقرآن الآن كما كان يتأثر الصحابة وهم يستمعون إلى الرسول وهو يقرأ عليهم القرآن، وهذا يدل على أن صوت رسول الله كان يتنزه ويتعزى عنه... الاعاني القرآنية ويعطي لكل مقام ما يناسبه ويلائمه ويوافقه من نبرة الصوت، علوه وانخفاضه ومن حدته وشدته، ومثل هذا الصوت، وما به من بحة وانشقاق لا يكون جهوريا، بدليل أن الرسول كان يندب أحد الصحابة ليبلغ عنه، مثلما حدث في حجة الوداع حينما كان (ربيعة بن أمية بن خلف) يبلغ عنه .

• قاسما : منطقه

كان ﷺ ضليع الفم، ومن معانيه سعة الفم وقوته، والعرب تحمد عظم الفم؛ لأنه يتيح لصاحبه التمكن والتحكم في النطق، وكان الرسول يفتتح الكلام ويختمه بأشداقه، فهو يعطي لكل حرف من حروف الكلمة حقها التام والموفور بدون أن يطرأ على الحرف أو الكلمة اعوجاج أو انحراف، وطالما الفم واسع وقوي فجهاز النطق ومكوناته في أكمل وأتم صورته ويؤدي وظيفته على خير وجه، أضف إلى ذلك سلامة وانتظام وصحة أسنانه، ولا ننسى أنه نشأ في نادية بني سعد وكان يفتخر بذلك " نشأ في بني سعد ورتبته في قريش عالية، فجمع من الكلام رونق الحضارة، وجزالة البادية، وأيد ببراعة خصه بها من حكم بتوفير قسمه : لأن مدده الوحي الذي لا يدركه البشر ولا يحيطون بشيء من علمه، كان صلى الله حلو المنطق، في كلامه ترتيب، كلامه فصل لا نزول ولا هذر، بين، يحفظه من جلس ويفهمه كل من سمعه، كأننا هو درر نظمت، لا فضول فيه ولا تقصير، ولو عده العاد لأحصاه .

نزه الله منطقه عن التكلف وتعقيد الصوت والتمتمة والفاقة والرثة والتنطع والتعطق والتفهيق، وجعل منطقه مساوقا لطبيعة اللغة، فتم له إحكام الضبط وإتقان الأداء : فجاء لفظه مشبعا ولسانه بليلا وتجويده فخما، ومنطقه عذبا، ومصداق ذلك قول عائشة رضي الله عنها : ما كان رسول الله ﷺ يسرد كسر دكم

هذا ، ولكن كان يتكلم بكلام بين فصل. يحفظه من جلس إليه ، وفي رواية أخرى :
كان رسول الله ﷺ يحدث حديثاً لوعده العاد لأحصاء^{١٥٦} .

لذلك كان كل من يجلس إليه مستمعا كان يؤخذ بمنطقه ، ويدرك على الفور أنه لا يجلس أمام إنسان عادي . ومن هنا تبدأ شخصية النبي تبسط سلطانها وتأخذ المستمع إلى عالم آخر من الصفاء والطهر والنقاء والأمن والسلام . ومع تلك الثقة والوضوح والصراحة والمكاشفة التي تنضح من كلماته لا يملك المستمع إلا أن يقتنع اقتناعا كاملا ، لا بل هو يتجاوز تلك المرحلة إلى التسليم الكامل والخضوع التام لما يقول به النبي ، لذلك قالوا عن القرآن أنه سحر ، وقالوا - من ضمن ما قالوا - على محمد أنه ساحر ، والسحر والساحر يتأبى على كل عقل أو منطوق ، كل ما يمكن أن يقال أنه قوة جارفة من شأنها أن تضعف أو تزيل أي مقاومة تحاول أن تمنع التأثير بهذا المنطق النبوي " ألقى الله على كلامه المحبة ، وغشاه بالقبول وجمع له بين المهابة والحلاوة ، وهو مع استغنائاه عن إعادته ، وقلة حاجة السامع إلى معاودته ، لم تسقط له كلمة ، ولا زلت له قدم ، ولا بارت له حجة ، ولم يقم له خصم ، ولا أفحمه خليب ، بل يبذ الخطب الطوال بالكلام القصير . ولا يلتمس إسكات الخصم إلا بما يعرفه الخصم ، ولا يحتج إلا بالصدق ، ولم يسمع الناس بكلام قط أعم نفعا ، ولا أصدق لفظا ، ولا أعدل وزنا ، ولا أجمل مذهبا . ولا أكرم مطلبا . ولا أحسن موقعا ، ولا أسهل مخرجا ، ولا أفصح عن معناه ، ولا أبين عن فحواه من كلامه ﷺ .

كان ﷺ يقتصر في كلامه على قدر الكفاية : فلا يسترسل فيه هذرا ولا يحجم عنه حصرا ، وهو فيما عدا حالي الحاجة والكفاية أجمل الناس صمتا

وأحسنهم سمنا ، حلا كلامه فاستعذبتة الأفواه حتى بقى محفوظا في القلوب
مدونا في الكتب . سالما من الزلزل " ١٥٧ .

٥ عاشرا: محضره

لكل تلك الصفات التي ذكرناها والتي لم نذكرها لرسول الله - ﷺ -
تميزت شخصيته بالثراء والتنوع والغنى ، وإن كل إنسان يجد فيه ما يبتغيه من
مثل عليا ، ومن هنا كثرت وتعددت وتنوع أصحاب رسول الله ، فمنهم السياسي ومنهم
رجل الدولة ومنهم المفكر ومنهم الشاعر ومنهم المحارب ومنهم القائد ومنهم الزعيم
ومنهم العابد ، وكل هؤلاء كانوا يجدون في رسول الله العلم والهدى والنور والرشاد
ويلتمسون منه ما ينفعهم في دنياهم ودينهم . وكان يطيب لهم أن يجلسوا إليه
ويمكثوا وألا يفارقونه ليلا أو نهارا ، وهذا راجع إلى شخصيته وما يتمتع به سمات
وصفات وخصائص تزيل من النفس الإنسانية تلك الحجب والموانع ، التي تجعلها
بل تدفعها دفعا إلى أن تحب وتخلص في هذا الحب ، إخلاصا لا مثيل ولا نظير له
وبدلا من أن نسأل لماذا كانوا يحبون رسول الله ، نسأل ولماذا يكرهونه ؟!

هذا إنسان صبح من خير وجمال . يحب كل الحب والخير للإنسان ، يتمنى
من قرارة نفسه أن يهدي الجميع - بلا استثناء - إلى الهدى والرشاد ، عامرة نفسه
بالعفو والتسامح والصفح والود ، غن كل ما ينشده الإنسان الخير السوي من
معاني الرقي والسمو . يجده مجسدا في شخصه ، حتى الذي كان يبغضه بغضا
شديدا ، ما هي إلا مدة وجيزه ويجد الحب يتسرب إلى قلبه . فيتحول البغض
الشديد إلى حبا جارفا . " عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : بعث رسول الله - ﷺ -
خيلا قبل نجد فجاءت برجل من بني حنيفة يقال له ((ثمامة بن أثال سيد أهل
اليمامة ، فربطوه بسارية من سواري المسجد ، فخرج رسول الله - ﷺ - فقال ما
عندك يا ثمامة بن أثال ؟ فقال : عندي يا محمد خير إن تقتلني تقتل ذا دم وإن

تنعم تنعم على شاكر، وإن كنت تريد المال فسل تعط منه ما شئت . فتركه رسول الله حتى الغد . ثم قال : ما عندك يا ثامة ؟ قال ما قلت لك إن تنعم تنعم على شاكر . وإن تقتل تقتل ذا دم ، وإن كنت تريد المال فسل تعط منه ما شئت . فقال رسول الله : أطلقوا ثامة . فانطلق إلى نخل قريب من المسجد فاغتسل ثم دخل المسجد فقال : أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله ، يا محمد والله ما كان على الأرض وجه أبغض إلى من وجهك ، فقد أصح وجهك أحب الوجوه كلها إلي ، والله ما كان دين أبغض من دينك فقد أصبح دينك أحب الدين كله إلي والله ما كان أبغض إلي من بلدك ، فقد أصبح بلدك أحب البلاد إلي ، وإن خيلك أخذتني وأنا أريد العمرة فماذا ترى ؟ فبشره رسول الله وأمره أن يعتمر . فلما قدم مكة قال له قائل : صويت ؟ قال لا ولكن أسلمت مع محمد رسول الله ، ولا والله لا يأتیکم من الیمامة حنطة حتى یأذن فیها رسول الله ﷺ .

الإنسان لا يكذب نفسه ، لا سيما وإذا كان الأمر متعلقا بمصير الإنسان في هذا الوجود ، وقد اعترف " ثامة " أنه لا يبغض أحدا على وجه الأرض مثل بغضه محمدا ، وهي بالنسبة له حقيقة وجدانية لا يجد " ثامة " غضاة أن يجهر بها . لا شيء إلا لأن تلك الحقيقة - الوجدانية - تحولت في مدة وجيزة إلى النقيض ، وهذا ليس عيبا . ولكن العيب كل العيب أن يتسم الوجدان بالثبوت والجمود والتحجر فدلالة الحياة أن تتغير المشاعر من الكرة إلى الحب أو من الحب إلى الكره . أو تزداد المشاعر تألقا وقوة ، المهم أن يكون هناك حركة ، فوران ، عنفوان ، فالإنسان الحي كتلة من المشاعر والأحاسيس ، تزداد عند البعض توهجا واشتعالا وتأججا ، وتقل عند البعض . حتى إذا فارقت الحياة الجسد انحلقات وفاضت تلك المشاعر والأحاسيس .

إذن الأمر أكبر وأعظم أن أصف محضر الرسول أو الرسول بأنه لطيف المحضر ، أو أنه أجمل الناس وأبهاه من بعيد ، وأحسنه وأجمله من قريب ، ولكن

مدى تأثير وأثر شخصية محمد فيمن يقف أمامه ، فيمن يحدثه ويحاوره ويناقشه فيمن تلامس يده يد محمد ، فيمن تلتقي نظراته بنظراته ، تلك شخصية إنسان تعامل وتعاطى واقتبس من ملك الملائكة ، الروح ، جبريل ، وتنزلت عليه كلمات الله ، وتجمعت فيه صفات وسمات وخصائص استدعت أن تختاره العناية الإلهية ليكون بشيرا ونذيرا للناس ، وأن يكون حاملا لأعظم وأبقى وأخلد معجزة على مر الزمان ، وهو القرآن ، وتجمعت واجتمعت الأسنة والقلوب والأفئدة على الشهادة له ، بعدما شهد الله - عز وجل - له .

نحن في العصر الحديث إذا قدر لفرد منا أن يقابل ذا منصب رفيع قد لا ينام ليله ، وقد يتعثر ويتلجلج ويرتج عليه ، ويتفصد عرقا ، أثناء المقابلة ، ويخرج من المقابلة غير مصدق نفسه أنه قد قابل ذا الشخص ، ويحفظ كلماته كلمة كلمة ويحتفظ بكل إشارات وإيماءاته ، ويعتبران تلك المقابلة - المقابلة في حد ذاتها - نوعا من التكريم له ، وكل ما يتمتع به الشخص الذي قابلته ، أنه ذو منصب ، مديرا كان أو محافظا أو وزيرا أو رئيسا ، وأن هذا المنصب يضفي على صاحبه هالة من الكبرياء والاعتداد والثقة ، وكل هذا - ولا شك - له تأثيره فيمن حوله . فما بالك لو كانت تلك المقابلة مع رسول الله ﷺ ؟ .

لأننكر ولا أحد ينكر أن لشخصية الرسول تأثير عظيم فيمن حولها ، وإن هذا التأثير كقيل أن يزيل أي نوع من المقاومة أو العناد أو الإصرار على الوقوف موقف العداء أو الخصام لرسول الله ، فالرسول يستطيع أن يعرف ما يدور داخل نفس محدثه أو من يقف أمامه أو يقابله ، ليس هذا فحسب ، بل يدرك الطريقة أو الأسلوب الأمثل للتعامل ، أو العلاج الناجع لمرضى النفوس ، والمواقف كثيرة في سيرة الرسول ، والتي أثبتت وبرهنت علمه وخبرته ودرايته بما يطيب تلك النفوس وموقفه من فضالة خير مثال على ذلك " فضالة بن عمير بن الملوح عندما أراد قتل النبي وهو يطوف بالبيت عام الفتح ، فلما دنا منه قال رسول الله فضالة ؟

قال : نعم فضالة يا رسول الله .

قال : ماذا كنت تحدث به نفسك ؟

قال : لا شيء ، كنت أنكر الله

فضحك النبي ثم قال : استغفر الله .

ثم وضع النبي - ﷺ - يده على صدره فسكن قلبه ، فكان فضاله يقول :

والله ما رفع يده عن صدري حتى ما من خلق الله شيء أحب إليّ منه " .

أراد قتل النبي

ومن يريد قتل إنسانا ، أي إنسان فإن ، إيماءاته وإشاراتهِ إلتفاتته ، نفضح

ما يحاول أن يخفيه .

فما بالك من يريد قتل نبيا ، ومن ؟ رسول الله .

لا شك أن الرسول عرف وأدرك ما ينويه ويدبره هذا الرجل .

أو أنه ألهم ذلك .

أيما كان الأمر ، فإن الرسول سمح للرجل أن يقترب منه ويدنو ، ليس هذا

فحسب بل مد يده الشريفة إلى صدر الرجل ، ما هي إلا لحظات حتى برأ

صدر الرجل من كل كراهية للرسول ، ليس هذا فقط بل تحول هذا الكره إلى حب

ليس هذا فقط بل صار الرسول أحب خلق الله إلى قلب الرجل .

كل هذا حدث ، وما كان له أن يحدث لولا أن الرجل في حضرة الرسول .

وليس لنا أن نسأل لم وكيف تحولت كل تلك الكراهية إلى كل هذا الحب .

ولكن لنا أن نسأل لم الكره لشخص رسول الله ؟

فليس هناك سبب واحد لكراهية رسول الله .

وتوجد ملايين الأسباب لحب رسول الله ، بل ليكون أحب المخلوقات إلى

قلب الإنسان ، أي إنسان .

وأن تقف أمام رسول الله ، أو يقف أمامك رسول الله ، أو تحدث رسول الله أو يحدثك رسول الله ، وتلمس رسول الله أو يلمسك رسول الله ، فجأة يمتلاكيانك بهذا الوجود النوراني ، والحضور الملائكي الرباني ، في تلك اللحظة يبدأ تاريخ الوجود الحق للإنسان ، من لحظة أن ينبض القلب بحب هذا الشخص الكريم وانها لأشرف وأطهر نبضة ينبض بها قلب المخلوق .
صلاة ، وسلاما..... عليك يا رسول الله .